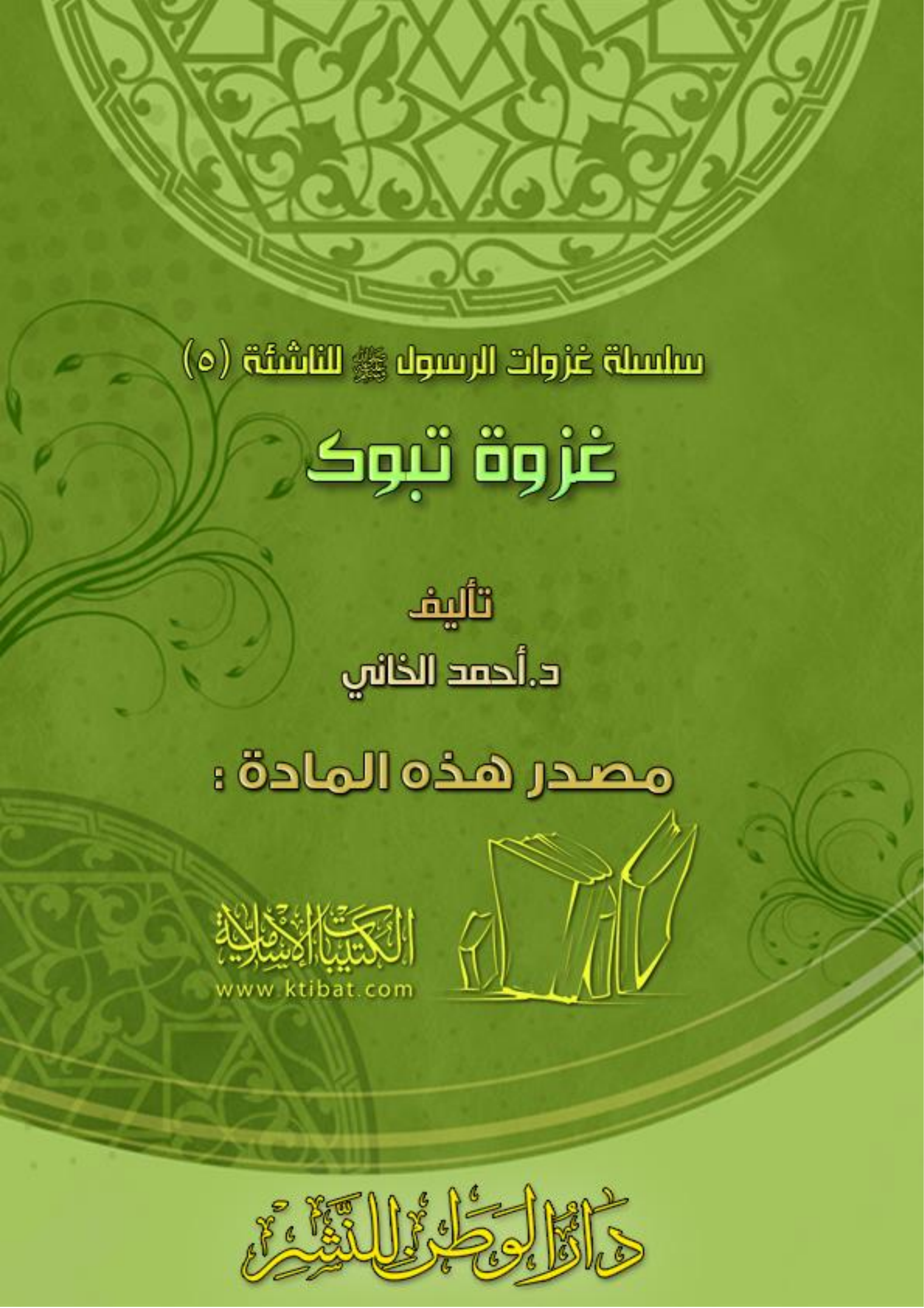

سلسلة غزوات الرسول ﷺ للناشئة (٥)
غزوة تبوك
تأليف
د.أحمد الخاني
مصدر هذه المادة :
الكتيبات الإسلامية
www.ktibat.com
دار الوطن للنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

غزوة تبوك

حينما عاد جيش مؤتة ظافراً مع قلَّة عدده وبساطة أسلحته، ومع ضخامة جيش الرُّومان وقوة سلاحه؛ أراد أن يقوم بعملٍ حاسمٍ تجاه الرَّسول ﷺ الذي أرسل جيشاً قوامه ثلاثة آلافٍ إلى مائتي ألفٍ، فقتل من الرُّومان حوالي خمسة آلاف روميٍّ، وعاد جيش المسلمين الصَّغير سالماً غانمًا، لم يفقد سوى اثني عشر رجلًا، الأمر الذي جعل القبائل العربية في الشَّام التي دخلت تحت حكم قيصر تنتظر يوم الاستقلال عن الرومان وميلهم إلى المسلمين.

كان قيصر يدرك هذا الأمر ويقدِّر خطورته عليه، فكان يرى أنَّه يجب القضاء على قوة المسلمين الفتيَّة قبل أن تقوى وتصبح خطراً لا يمكن دفعه أو القضاء عليه، ولذلك أخذ يجهِّز جيشه من الرُّومان والعرب التابعين له من الغساسنة وغيرهم، وبدأ يخطط للمعركة الفاصلة.

وصلت أنباء هذه الاستعدادات الرُّومانية إلى المدينة المنورة، فانتشر الذعر فيها، وكان جهد المنافقين ينصبُّ مع جهد الرُّومان في خندقٍ واحدٍ ضدَّ المسلمين، إذ كان عبد الله ابن أبيّ بن سلول رأس المنافقين لا يدَّخر جهدًا في إيذاء المسلمين والتفريق بينهم، وإمعانًا في الشرِّ فقد أسَّس المنافقون وكراً للدسِّ والتآمر وتفريق المسلمين، وسمَّوه مسجد الضِّرار، فهدمه رسول الله ﷺ بعد أن عاد من الغزوة، لأنَّه كان منشغلًا في الإعداد لها.

وجاءت قافلةٌ للأنباط الذين يقدمون بالبضائع من الشَّام إلى المدينة، ونقلت أنَّ هرقل جهَّز جيشاً قوامه أربعون ألف مقاتلٍ، وقد انضمَّت إليهم القبائل المتنصرة من عرب الشَّام، وأنَّ هذا الجيش وصل إلى البلقاء.

عظم الخبر على المسلمين، ورأوا فيه الخطر المحدق، والذي زاد من خطورة الموقف أنَّ الزَّمان كان صيفاً وذا حرٍّ شديدٍ جدًّا، وكان النَّاس في عسرٍ وجهدٍ وبلاءٍ وقلةٍ من الجمال التي تحملهم في هذه المسافة الطَّويلة، وكانت التمور والأعناب والفواكه قد نضجت، والنَّفس الإنسانية تميل إلى الثِّمار والظِّلال، فلو كان الأمر متروكاً لهم فربَّما لا يخرجون لملاقاة الرُّومان.

ولكنَّ الرَّسول ﷺ كان يقدِّر الموقف وخطورته، فلو لم يسرع إلى تجهيز الجيش لملاقاة الرُّومان فربَّما استمرَّ زحفهم إلى المدينة، وحينئذٍ سيستأصلون الإسلام والمسلمين، يساعدهم في ذلك المنافقون، كمواقفهم في الغزوات السَّابقة يوم أحدٍ والخندق، كما بيَّتوا مؤامرةً عندما وصل خبر زحف الرُّومان، ليثبِّطوا همَّة النَّاهض إلى القتال.

سيكون الرَّسول ﷺ بين العدوِّ الخارجيِّ وهم الرُّومان وجيشهم الزاحف في أربعين ألفاً، وبين المنافقين يساعدهم اليهود، لذلك قرَّر الموقف، وأعلنه في الصَّحابة على الملأ أن يتجهَّزوا لقتال الرُّومان.

وكان لا يريد غزوةً إلا ورَّى بغيرها إلا هذه الغزوة، فنظراً لخطورتها وعسر ظروفها أعلن الحرب على الرُّومان أمام المدينة والعرب؛ ليحشد كلَّ طاقاتهم لملاقاة الجيش الرومانيِّ الزاحف.

وبينما كان الرَّسول ﷺ منشغلًا في تجهيز الجيش، والمسلمون يتسابقون إلى إنفاق المال في سبيل الله؛ لتجهيز أكبر جيشٍ شهدته الجزيرة العربية في عهد الإسلام، في هذه الأثناء بلغ الرَّسول ﷺ أنَّ ناساً من المنافقين يجتمعون في بين سويلم اليهوديِّ يثبطون النَّاس عن رسول الله ﷺ حتَّى لا يلحقوا بالجيش الزاحف إلى تبوك، ولم يطعهم إلا المنافق الذي حشي قلبه نفاقًا، أما المؤمنون الصَّادقون فكانوا يبكون إذا جاءوا إلى رسول الله ﷺ ليساعدهم على الخروج

إلى القتال؛ لكي يعطيهم ما يحملهم في هذا الطَّريق الطَّويل. فكانوا يبكون إذا قال لهم الرَّسول ﷺ ليس عندي ما أعطيكم.

أما سويلمٌ اليهوديُّ وجماعة عبد الله بن أبيِّ بن سلولٍ فقد ثبَّطوا نفراً من أمثالهم عن الالتحاق بالجيش الإسلاميّ، ولما علم بذلك رسول الله ﷺ بعث إليهم طلحة بن عبيد الله في نفرٍ من أصحابه، وأمرهم أن يحرقوا عليهم بيت سويلم، ففعل طلحة.

وتسابق الصَّحابة الكرام للإنفاق في سبيل الله، وتصدَّق عثمان بن عفان رضي الله عنه بألف دينارٍ وتسعمائة بعيرٍ ومائة فرسٍ، وجاء عمر رضي الله عنه بنصف ماله، وجاء أبو بكرٍ الصِّدّيق رضي الله عنه بماله كلِّه، وتصدقت النِّساء بما قدرن عليه من الذّهب والحليّ، ولم يبخل بماله إلا المنافقون.

ولما قرَّر النبيُّ ﷺ السير ضرب عسكره على ثنيَّة الوداع، تلك التي بلغها عندما هاجر من مكة إلى المدينة، واستقبله أهل المدينة ينشدون.

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

أيُّها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

جئت شرَّفت المدينة مرحباً يا خير داع

وكان مع الرسول ﷺ أكثر من ثلاثين ألفاً من النَّاس، وأمَّا رأس المنافقين عبد الله بن أبيّ بن سلولٍ عدوُّ الله ورسوله فقد ضرب عسكره أسفل من ثنية الوداع، وكان معه من المنافقين مثل عدد جيش النبيّ ﷺ.

وسار الرَّسول ﷺ نحو تبوك، وتخلَّف عنه معسكر المنافقين.

واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة محمد بن سلمة الأنصاريَّ. وخلف على أهله عليَّ بن أبي طالبٍ، وأمره بالإقامة فيهم.

تحرَّك الجيش الإسلاميُّ نحو تبوك، وأصابهم عطشٌ شديدٌ، وكانوا في عسرٍ عظيمٍ، وكان الرجلان والثلاثة على بعيرٍ واحدٍ، وما زالوا في هذه المشقة، والصَّحابة صابرون حتَّى وصلوا تبوك.

نزل الجيش الإسلاميُّ بتبوك، فأقام معسكره، واستعد للقاء الرُّوم، وقام ﷺ فيهم خطيباً؛ فخطب خطبةً بليغةً رفع بها معنويات جيشه المضنَى من التَّعب والمشقة وعسر الطَّريق، وقلة الزاد والعطش، وحرِّ الشَّمس اللاهب؛ فأصبحوا في مستوى المعركة القتالية المقبلة.

أمَّا الرُّومان ومن معهم من العرب وغيرهم لما سمعوا بزحف النبيِّ ﷺ سيطر عليهم الرُّعب، وجبنوا على لقاء الرسول ﷺ، وتفرَّقوا في بلادهم، فلمَّا سمعت العرب بأنَّ الرُّومان خافوا لقاء الرَّسول ﷺ جنحوا إلى السلم والموادعة، ورغبوا بالإسلام أو بالصلح مع الرسول ﷺ، وكان ذلك أنفع للمسلمين من أن يكونوا خاضوا حرباً وانتصروا فيها.

فقد جاء يحنَّة بن رؤبة صاحب أيلة يطلب الصُّلح من الرسول ﷺ، وأعطاه الجزية، وصالحة كثيرٌ من حكَّام تلك المناطق.

وبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة الجندل، فخرج أكيدر لصيده، وكانت ليلةً مقمرةً، فتلقاه خالدٌ في خيله؛ فأخذه أسيراً، وجاء به إلى رسول الله ﷺ فحقن دمه، وصالحه على ألفي بعيرٍ وثمانمائة رأسٍ وأربعمائة درعٍ وأربعمائة رمحٍ، وأقرَّ بإعطاء الجزية.

وكان من نتيجة غزوة تبوك أن قلَّت هيبة الرُّومان في نظر المسلمين وعرب النَّصارى، وأيقنت هذه القبائل التي تعمل لحساب الرُّوم أنَّ اعتمادها هذا قد انتهى، وقد حان الوقت للالتفات إلى هذا الدين الجديد للإيمان به والعيش في رحابه.

عودة المنتصر ﷺ

وعاد الرسول ﷺ القائد من تبوك إلى المدينة والجيش الإسلاميُّ منصورين، لم يلاقوا حرباً، ولا مغرماً، بل غنموا مغانم كثيرةً، وفتح الله على رسوله ﷺ البلاد وقلوب العباد، أناسٌ يرغبون الصلح، وأناسٌ يسلمون.

ولما رأى بعض أتباع رأس المنافقين ابن سلولٍ هذا النصر للرسول ﷺ حاول اثنا عشر رجلًا منهم الفتك بالرسول ﷺ، وذلك حينما كان يمرُّ بالعقبة، وكان حذيفة بن اليمان رضي الله عنه آخذًا بخطام ناقة النبيِّ ﷺ، وعمارٌ يسوق الناقة، فهجم أولئك المنافقون وهم متلثمون؛ فجعل حذيفة يضرب وجوه رواحلهم بمحجنٍ كان معه، فأرعبهم الله فأسرعوا في الفرار حتَّى لحقوا بالقوم، وأخبر رسول الله ﷺ حذيفة بأسمائهم وبما همُّوا به؛ فلذلك كان حذيفة يسمَّى بصاحب سرِّ رسول الله ﷺ.

ولما لاحت للنبيِّ ﷺ معالم المدينة من بعيدٍ قال: «هذه طابة، وهذا أحدٌ جبلٌ يحبُّنا ونحبُّه» ولما دخل رسول الله ﷺ المدينة بدأ بالمسجد فصلَّى ركعتين، ثمَّ جلس للناس.

فأمَّا المنافقون فجاءوا يعتذرون بأنواعٍ شتَّى من الأعذار.

وأمَّا الثَّلاثة من المؤمنين الصَّادقين وهم: كعب بن مالكٍ، ومرارة بن الربيع، وهلال ابن أميّة فاختاروا الصِّدق.

فأمر رسول الله ﷺ الصَّحابة ألا يكلِّموا هؤلاء الثَّلاثة، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، ثمَّ أنزل الله توبتهم، ففرحوا وفرح لهم المسلمون.

وكان من أثر هذه الغزوة أن لا قوة في الجزيرة سوى قوة الإسلام، لذلك ضعف المنافقون والجاهليون الذين كانوا يتربصون بالمسلمين، وضعفت آمالهم عن أن

يمدَّهم الرُّومان، كما مهَّدت هذه الغزوة السبيل لاقتحام الرُّومان في عقر دارهم، وقد دبَّ الله الرُّعب في قلوبهم من هذه القوَّة الإسلامية الجديدة، وصار المقاتل المسلم يتفوَّق بمعنوياته على المعنويَّة الرُّومانية؛ مما سهَّل فتح بلادهم والقضاء عليهم في معركة اليرموك.

وكان من آثار هذه الغزوة العظيمة أيضاً أنَّ قبائل العرب وإن كانت أخذت في التوافد إلى رسول الله ﷺ بعد فتح مكة، إلا أنَّ تتابع الوفود وتكاثرها بلغ القمَّة بعد هذه الغزوة العظيمة.